وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الأخلاق لدى المدارس الفلسفية قديما وحديثا

"فكرة الإلزام نموذجا"

داسة نقدية فى ضوء الإسلام

د محمد عبد الرحيم

١٢/٢/ ٢٠٠٥م

mG S

إن فكرة الإلزام لايخلو منها أى مذهب خلقى جدير بهذا الاسم . فالإلزام هو العنصر الأساسي أو المحور الذى تدور حوله المشكلة الأخلاقية ، وزوال فكرة الإلزام يقضى على جوهر الحكمة العقلية والعملية التى تهدف الأخلاق إلى تحقيقها. فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسئولية وإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه وإقامة أسس العدالة وحينئذ تعم الفوضى ويسود الإضطراب لافى عالم الواقع فحسب بل من الناحية القانونية ومن وجهة نظر المبدأ الأخلاقى ذاته . وإذا كانت الأخلاق تؤول فى النهاية إلى مجموعة من القواعد فكيف يتسنى للقاعدة أن تكون قاعدة بدون أن تلزم الأفراد بإتباعها ؟

من هذا المنطلق سنبدأ بمشيئة الله تعالى بعرض مجمل لقضية الإلزام الخلقى فى الفكر اليونانى ثم فى الفلسفة الحديثة ثم نبدأ بتقييمها ونقدها وبعد ذلك نتحدث عن النظرية لدى فلاسفة الإسلام المتأثرين بالفكر اليونانى والمؤثرين فى الفكر الحديث ونختم بالحديث عن النظرية القرآنية فى الإلزام الخلقى ....والسلوك الإنسانى عامة ليس سلوكا عشوائيا والسلوك الأخلاقى خاصة يصدر عن دوافع معينة هى المرجعية الأخلاقية التى يمكن للإنسان أن يخالف دواعيها بشكل من الأشكال ..ولما كانت درجة الإلتزام الأخلاقى مبنية على درجة الإلزام، ولما كان من أهم خصائص الأخلاق القويمة مدى ما فيها من قوة تدفع اللإنسان إلى العمل بها كان الإلزام من أهم الأسس التى يقوم عليها صرح بناء الأخلاق ..وقد تفرقت الفلسفة فى مذاهب شتى بهذا الصدد كل منها يرد هذا الإلزام إلى أحد مكونات الطبيعة الإنسانية ويتلافى ما عداه ولا يوجد شىء فى الحقيقة أدعى إلى الحيرة من الإنسان فهو صنع عجيب فلم يفلحوا فى وضع سلطة تتأدى بنفاذها القوة المنفذة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لقانون عالمى للأخلاق ولا أن يجدوا حافزا يكفى لأن يبعث فى النفوس الرغبة الصادقة فى اتباع الحق والتنكب عن الباطل فى حين نجد نظرة الإسلام بالطبيعة الإنسانية وخصائصها أكثر شمولا واتساعا باعتبار أن الإنسان كل لا يتجزأ ولا بد لكى يستقيم سلوكه من ضرورة التنسيق بين كل تلك الجوانب حتى يؤدى كل جانب منها وظيفته فى حراسة قانون أخلاقى يهدف الإنسان إلى تحقيقة..

المبحث الأول

الإلزام الخلقى فى الفكر الفلسفى اليونانى

لقد اعتبر الفلاسفة اليونانيين الأخلاق فرعا من فروع الفلسفة وقد درسوا معظم القضايا الأخلاقية إن لم يكن جميعها وكان لهم أكبر الأثر فى الفلسفات اللاحقة بحيث يسهل علينا أن نرى بصماتهم واضحة فى الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى والعصر الحديث بل لا نكون مبالغين لو قلنا إن لكل نظرية فلسفية عامة أو أخلاقية خاصة ظهرت بعد العصر اليونانى جذورا يونانية..

أ- بين السوفسطائيين وسقراط :لقد كان للسوفسطائيين عناية خاصة بالإنسان والارتفاع به فوق الطبيعة ولكنهم قد أسرفوا فجعلوه مقياسا للخير والشر والحق والباطل والجمال والقبح وقد كان سقراط دائما على النقيض من هؤلاء يؤمن بالقيم الخالدة قيم الخير و الحق والجمال ويعتبرها معايير مسبقة تحكم فعل الإنسان .هذا وتعتبر السفسطة الجد الأعلى للمذاهب الإلحادية وإن لم يكن السوفسطائيين ممن يدعون للإلحاد أو اللادينية ولم يشتهر ذلك عنهم:

لقد زعم السوفسطائييون أن الطبيعة الإنسانية شهوة وهوى وأن القوانين الوضعية ما هى إلا تحد لها : ومن ثم كانت تلك القوانين نسبية وغير واجبة الاحترام فهم لا يعترفون بمصدر للإلزام الخلقى أصلا سوى تلك القوانين الوضعية بل بناء على ذلك لا معنى عندهم للفعل الخلقى..

وقد ذهب سقراط إلى ضرورة الإيمان بأن القوانين الواجبة صادرة عن العقل ومطابقة للطبيعة الحقة وهى صورة من قوانين غير مكتوبة رسمها الخالق فى قلوب البشر والإنسان بفطرته يبحث عن السعادة فإذا علم أن الفضيلة هى الطريق الوحيد الموصل إلى السعادة سلكه لا محالة[١]..

وهذا فى حد ذاته قائم على افترضات مجردة كافتراض أن العلم يوجب العمل وأن كون الفضيلة طريق وحيد للسعادة معلوم بالضرورة وهذا بلا شك غير وارد ..لقد كانت فلسفة سقراط رغم سموها ونقائها لا تستطيع أن تقف على قدمين وقد رفض السوفسطائيون المعايير السقراطية الكلية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ورأوا أن الأحكام الأخلاقية جزئية كما أنها متغيرة

ب- بين مثالية أفلاطون وواقعية أرسطو :المثل الأفلاطونية حقائق خالدة لا تفسر وإنما الذى يفسر هو الكائن المحسوس ، والمثل عند أفلاطون هو مبدأ الوجود لأنه لا حقيقة للأشياء المحسوسة لإلا بما تحتوى عليه ماهيتها والتى تصل بينها وبين عالم المثل وبهذا يقوم المثل فى الفلسفة الأفلاطونية بوظيفة العلة المفسرة للعالم الطبيعى ..ينتقد أرسطو فكرة المثل الأفلاطونية ويرى أن السعادة هى العلة الغائية لاكتساب الفضيلة فالإنسان غير مطبوع على الفضيلة وإنما مطبوع على قبولها عن طريق الاكتساب الإرادى بالمران والممارسة .. ويتعلق الأمر بأصحاب القوانين فالعقل إنما يخاطب القلة من الناس[٢].

ج- مذهب اللذة بين أرتسيب وأبيقور:يعد أرتسيب القورينائى (٤٣٥ق.م) واضع الأسس النظرية لمذهب اللذة ؛ قال : إن السعادة هى اللذة ، واللذة هى الخير الأقصى وهى نداء الطبيعة ، والحكمة تقتضى الحصول عليها والسعى وراءها وإذا كان أبيقور قد أخذ بهذا المذهب فإنه حرص على ان يعدل منه بحذق , فهو يجعل اللذة نوعا من السعادة النفسية ليستبقى بذلك على الفضائل المعروفة ويستبعد الرذائل :فلما كانت اللذة على وجه الدقة هى خيرنا الفطرى الرئيسى فإننا لا نبحث عن كل لذة بل ثمة أحوال نجاوز فيها كثيرا من اللذات إذا نجم عنها ضيق ينالنا [٣].

د -الرواقية بين الجبر والاختيار :لقد نشأت الرواقية فى أثينا مع المدرسة الأبيقورية وقد اهتمت بالأخلاق اهتماما كبيرا وجعلت غاية الفلسفة القصوى وضع قوانين السلوك الخير .

وفى الرواقية يزداد المجال اتساعا أمام الإنسان ففيه نفحة من الإله تفسح له إمكان الاشتراك فى حياة الكون الأوسع ، وهذه الصورة الدينية السامية قادرة على استثارة همة الإنسان للتخلق بأخلاق الله تعالى من رحمة وعدل وعفو وتسامح) .[٤]. وهذه صورة نادرة تطبع أرفع التعاليم الدينية فى أكبر مذهب مغرق فى المادية فهى لذلك أثمن ما قدمه للبشرية).ثم يحاولون التوفيق بين حرية الإنسان وبين القدر والضرورة الأخلاقية بقولهم : إن الظروف الخارجية أى مناسبات أفعالنا وإن كانت محتومة لكنها ليست محتومة بذاتها فإن أفرادا مختلفين خلقا إن وجدوا فى نفس الظروف لم يأتوا بنفس الأفعال فالظروف تحرك الإنسان وخلقه يعين سيرته .. أجل إن التصرف الأخلاقى من فعل القدر ولكننا نعلم أن الظروف الأخلاقية ليست محتمة للفعل ونجهل العلة التى تحتم الفعل فالفعل بالنسبة لنا غير محتوم ولنا أن نعمل كأنا أحرار.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المبحث الثانى

الإلزام الخلقى في الفكر الفلسفى الحديث

لقد جمعت الفلسفة الأخلاقية فى العصر اليونانى تلك الأصول الأولى لكل ما جادت به عقول الفلاسفة من مثاليين وعقليين وتجريبيين وحسيين .وقد تطورت النظرية الأخلاقية فى العصور الوسطى ثم نضجت فى الفلسفات الحديثة ولكن التدرج قانون التحول تعمل عليه أسباب لطيفة عملا متصلا حتى يأتى يوم وإذا به قد تم وبرز للعيان

أ- ما قبل المذاهب الكبرى :يرى نيقولا دى كوسا (١٤٦٤م) أن الإنسان يسعى بطبعه لاستكمال ماهيته فهناك إذن دوافع طبيعية كامنه فى الإنسان تدعوه للالتزام بقوانين معينة لا تكتمل إنسانية الإنسان إلا بها ولا يمكنه فى الغالب مقاومة هذه الدوافع والتغلب عليها.

أما بنبوناتزى (١٥٦٢م) فيرى أن الفضيلة لا تحتاج إلى ثواب يدفع للعمل بها بل الثواب الحق الدافع للتمسك بالفضائل هو الفضائل ذاتها وكذلك الرذائل تنطوى على عقابها حتى ولو لم يلحق من جرائها ألم خارجى ويحاول تومازو كمبانيلا (١٦٣٩م) أن يصل إلى الأخلاق عن طريق المحبة فكما أن العلم بالذات مفروض فى كل علم فإن محبة الذات مفروضة فى كل محبة لأن الغرض من كل محبة حفظ الوجود والفرار من العدم ((ففى الإنسان دين كامل متحد بالعلم الكامن والميل الكامن [٥]((إنه يؤسس الأخلاق على مبدأ حب البقاء وحب الذات ويجعل من ذلك مصدرا للإلزام وراء كل مصدر ولكن ظهرت أيضا أفكار فردية جامحة منها ما هو امتداد لمذهب السوفسطائيين الأخلاقى ومنها ما هو تمثيل لمبدأ الشر والعدوان فمن النوع الأول نرى دى مونتينى ١٥٩٥)م) الذى يردد نفس حج الشكاك ويرى أن الحواس لا تدرك إلى انفعالاتها وأنه لو كان للعقل ما يزعمه البعض من حكم صائب ما اختلفت العقول وأنه ليس صحيحا ما يقال عن شيء اسمه الضمير من أنه يعلن لنا قوانين ثابته وأزلية غير مكتوبة ولكن الضمير هو شيء تشكله البيئة والموروثات والعادات[٦].

أما نيقولا ماكفيلى (١٥٧٥م) فهو بحق ممثل مبدأ الشر فقد انتقد الأخلاق المسيحية لأنها أوهنت عزيمة الإنسان ويوجب على الأمراء التدرب على عدم التقيد بالفضيلة معلنا أن الغاية تبرر الوسيلة

ب – أمهات المذاهب الأخلاقية الحديثة :بينما الجامعات والمعاهد الدينية تستخرج تراث العصور الوسطى تشتد من حولها الحركة العلمية والفكرية فى عصر النهضة ، ففى انجلترا يتبلورالمذهب الحسى بفضل بيكون ، ولوك – معلنين بخضوع الفعل الخلقى للتجربة التى يسيطر الحس عليها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وأرجعو نشأة الضمير إلى التجربة أو إلى التطور التدريجى كما قال التطوريون من أنصار هذا المذهب[٧].وفى فرنسا يبرز ديكارت بفلسفة عقلية روحية تنتشر على يد اسبينوزاو وليبنز ومن خلال هذه الفلسفة تختلط الإرادة بالعقل حين تتحكم الإرادة الفاعلة فى سلوك الإنسان وفقا لمبادئ الوضوح والتمييز وسيادة العقل .والجدير بالذكر أن هناك ثلاثة مفكرين قد أثروا تأثيرا عميقا فى الأخلاق الحديثة أهمهم دارون الذى اعتبر الإنسان هو أعلى درجة فى سلم الترقى عن الأمسبا وأن تفسير وجود الإنسان وأفعاله يجب أن يكون على هذا الأساس .ولقد اتجه فرويد متأثرا بدارون نفس الاتجاه فيما يتعلق بالدراسات النفسية وتفسير السلوك البشرى على أنه صادر عن الغريزة الجنسية ودوافعها ..أما فيما يتعلق بالعلوم الاجماعية فقد أسهم ماركس بفلسفته المادية الجدلية فى هذا المخطط المادى فجعل الإشباع المادى هدف الإنسان وغايته والدافع الأساسى لأفعاله.

ثم لم تلبث أن ظهرت المذاهب الأخلاقية الحديثة والمعاصرة ويبرز بوضوح تصنيفها تبعا لمنبع الإلزام الخلقى وهو ما سوف نتناوله فيما يأتى

●المنفعة: انبهر الأوربيون بالمنهج التجريبى وإنجازاته فى مجال علم الطبيعة مما دفع البعض إلى محاولة استخدام نفس المنهج فى دراسة الإنسان.

-١أرميا بنتام (١٨٢٣م) :مذهبه أن الناس يطلبون اللذة ويتجنبون الألم بالطبع ، لكنهم يتميزون عن الحيوانات بأنهم يتبعون مبدأ "المنفعة " حيث يعمِلون العقل .ولكى يحكم العقل يجب تقدير اللذات بجميع ظروفها والموازنة بينها وتقاس اللذات أولا من جهة صفاتها الذاتية : الشدة ، المدة ، قرب المنال، الثبات ، الخصب ..وتقاس ثانيا من جهة عواقبها :الخوف الذى يستولى على المواطنين من جراء الجريمة ، القدوة السيئة ، القصاص ..وهذا يعارض لذة الفعل ، فيميل المرأ إلى اتباع القوانين التى يراها المشرع نافعة لأكبر عدد[٨].. وهذا هو العلم الجديد الذى يدعيه بنتام ويسميه بالحساب الخلقى

-٢جون استيوارت مل (١٨٧٣م):أعلن انه ليس هناك أفضل من مذهب المنفعة بين جميع المذاهب الأخلاقية فهو أصلح ما يكون لمنهج العلم التزاما بمقتضياته .ثم انتقل بعد تصحيح مذهبه إلى اللذة الكيفية وأخضع المنفعة الذاتية إلى النفعة العامة ، إلا أنه يجعل المنفعة الذاتية هى الأصل والمعيار.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

-٣هربرت سبنسر (١٩٠٢م):حاول تطبيق التطور الوراثى فى مجال الأخلاق ؛ فهو يستبعد المعانى الميتافيزيقية ويقتصر السيرة الإنسانية على أن تكون مجرد حالة أو مرحلة أخيرة من سيرة الكائنات الحية لا أكثر ، ويعرفها بأنها جملة الأفعال الخارجية المتجهة مباشرة أو بالواسطة إلى صيانة الحياة

)إن اللذة والألم وحدهما هما الخير والشر وتهذيب اللذة – وبالتالى تنمية الحياة والتكيف مع البيئة – إنما تكتشف بطريق التغاير والانتخاب الطبيعى وينتقل ذلك بالوراثة ويترسخ فى صورة ميل غريزى[٩](

-٤وليم جيمس (١٩١٠م): يؤكد على أن العمل المنتج هو هدف الحياة وأن الفعل إنما يسخر لإشباع رغبات الإنسان بمعنى أن ((البارجماتية)) هى مذهب المنفعة فى صورته العملية ، ومعيار الصواب عند البارجماتى هو ما يحقق النفع والنجاح .

الحاسة الخلقية:

يمثل هذا الاتجاه موقفا وسطا بين أنانية التجريبيين ومثالية العقليين ، ويهدف على تأكيد الكيان الإنسانى من الزاوية الوجدانية عن طريق إحياء فكرة قديمة هى التوحيد بين الخير والجمال.

-١شافتسبرى (١٧١٣م): إننا نجد فى أنفسنا عواطف لا إرادية هى الإعجاب بالنبل واحتقار الخسة ، لدينا حس باطن قوامه محبة النظام والجمال وذلك عند شفتسبرى ما يسمى ((بالحاسة الخلقية[١٠]. ((إن الحاسة الخلقية وظيفتها إدراك خيرية الأفعال وشريتها ون أن يرتبط ذلك بلذة أو بألم ، وهى تقوى بالمران وتضعف بالإهمال

-٢بطلر (١٧٥٢م):حاول بطلر أن يتفادى بعض الانتقادات التى وجهت لمذهب الحاسة الخلقية وسمى هذا المنحى ب ((الضمير.((وقد اتفق مع شافتسبرى فى ضرورة أن يكون المصدر الملزم ذاتيا داخليا وضرورة التوفيق بين الأنانية والغيرية .وأضاف بعدا جديدا : فالضمير عنده قوة عقلية مدركة متميزة عن غيرها من قوى النفس تهيمن على أهواء الإنسان ودوافعه ، وتؤدى وظيفتها تلقائيا من غير حاجه إلى خبرة حسية أو تأمل استدلالى[١١]

-٣جان جاك روسو (١٧٧٨م):ويمثل " الوجدان " عند روسو نداء سماويا خالدا يحكم المبدأ الأعلى فى الإنسان حتى لا تشده غرائزه إلى أسفل ، وهو حكم لا يخطئ ، وهو الذى يجعل الإنسان متشبها بالله تعالى. الواجب انبهر الفلاسفة بقوة اليقين الرياضى وحاولوا أن يسيرا على طريقه فى فلسفاتهم وكان من أبرز هؤلاء منويل كانط (١٨٢٤م)إن كل شىء فى الوجود يسير وفق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

قوانين محددة تتناسق مع طبيعة الأشياء ، وبما أن طبيعة الإنسان هى العقل لذلك فإن القوانين التى يجب أن يسير عليها الإنسان فى حياته وأخلاقه يجب أن تقوم على مبادئ العقل وبذلك يصبح القانون الأخلاقى هو القانون العقلى عند الإنسان .إن تصور)) العقل العملى)) للإلزام يميز بين نوعين من الضرورة : النوع الأول هو الذى يجعل شيئا من الأشياء وسيلة لا غاية ونعنى به ضرورة مشروطة .والنوع الثانى ضرورة تحدد تحديدا مباشرا غير مشروط ، وهدف البحث الأخلاقى هو الوصول إلى الإلزام المطلق الذى فيه يكون الواجب غير مشروط بحيث تنهض الأخلاق على الأوامر المطلقة غير المشروطة.

ويحرص كانط على أن تأتى التجربة الأخلاقية محققة للشمول والعموم ، وقانون الواجب هو ذلك الإطار العام الشامل الكلى الذى لا يمكننا تصور تجربة أخلاقية إلا فى كنفه.

وواضح من ذلك أن العمل الأخلاقى هو إلزامى ، ولكن الإلزام الخلقى ليس بالمعنى الحتمى الذى نراه فى القانون الطبيعى فهذا الإلزام ينطوى على المسؤولية الأخلاقية ونحن من حيث كوننا كائنات أخلاقية أحرار ، فالحرية وثيقة الصلة بالأخلاق[١٢]. الضوابط الاجتماعية:

قام هذا المذهب على أنقاض الصراعات الخاصة بفلسفات الأخلاق وحاول أن يضفى طابعا اجتماعياً على فكرة الواجب والإرادة ، كما اهتم بتحليل أنماط السلوك الخلقى طبقا لمبدأ الإلزام الاجتماعى.

-١أوجست كونت (١٨٥٧م) :يرى أن المهمة التى يجب على الفلسفة الواقعية أن تعمل لها هى محو فكرة الحق اللاهوتة الأصل من حيث أنها تفترض سلطة أعلى من الإنسان ، وقصر الأخلاق كلها فى فكرة الميل الطبيعى إى إخضاع النزعات الذاتية للنوع أجمع .إن الدوافع للحياة المشتركة غريزة مستقلة على حساب الفرد ، على أن الأنانية أقوى فى الأصل من هذه الغريزة الغيرية ولكنها تخضع لها بنمو العقل والتعاطف وهذا إنما ينشأ بالحياة الإجتماعية.

-٢دوركايم١٩١٧) م:(

لماذا تفرض الظواهر الاجتماعية نفسها على الأفراد وتكرههم على الأخذ بها ؟ يرى دوركايم أن الأفكار والعواطف صادرة عن " وجدان اجتماعى "متمايز عن الوجدانات الفردية وأعلى منها ، ويرى أن الوجدان الاجتماعى – ولو أنه جملة الوجدانات الفردية – إلا أنه يؤلف كلا مغايرا كما يؤلف التركيب الكيميائى. وهكذا يزعم دوركايم كما زعم سبنسر أنه يفض الخلاف الناشئ بين الحسيين والعقليين بقوله إن المعانى والمبادئ مصنوعة من المجتمع وغريزية فى الأفراد.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

-٣ليفى برول :(١٩٢٩) صرح بضرورة نقل الدراسات الأخلاقية من الفلسفة التأملية إلى علم الاجتماع التجريبى ، فهو ينتقد فلسفة الأخلاق ويرى بدلا منها علما للأخلاق ، وينتهى إلى أن الأخلاق مظهر للجماعة تابع لماضيها ، وديانتها ، وعلومها ، وآدابها ، وعلاقاتها بالجماعات الأخرى

ولما كانت الجماعة لا تستمر على حال واحدة استلزم أن أخلاقها متطورة طبقا لقانون التطور . [١٣]

وبعد ..فهذه نبذة مختصرة عن قضية الإلزام الخلقى فى الاتجاهات الفلسفية المعاصرة مسبوقة بالحديث عن جذورها فى التراث اليونانى وقبل الانتقال إلى مناقشة تلك القضية فى الفكر الإسلامى ارى أنه ن الضرورى أن نتوقف قليلا عند نقد تلك الاتجاهات وتقييمها.

Gنظرة وتقويمS

إن الأخلاق إنما تكون إنسانية بقدر ارتباطها بما يميز الإنسان عن غيره وأما اتجاه النفعيين إلى اللذة والأنانية فإنه يؤدى إلى إغفال القيم الإنسانية وهدم المثل التى تحوز على التقدير المطلق. والمرأ فى ساعات الغى لا تستطيع الحاجة إلى الانسجام المنطقى أن تجعله يضحى بمصلحته وهواه وإنما رأى العقليون فى العقل مبدأ يقوم بوظيفة المنظم فى كائن عاقل وما اعتقاد ذلك إلا كالاعتقاد بأن إطار السيارة هو الذى يجعلها تتحرك على أن جوهر الواجب شىء وما يقتضيه العقل شىء آخر .والحق أن الأخلاق التى تظن أنها تقيم الإلزام على اعتبارات عقلية صرفة إنما تدخل على غير علم فيها قوى من نوع آخر أما الإلزام الخلقى فهو موجود من قبل .ومن السهل أن ندرك أنه ليس لأى غاية أن تفرض نفسها فرضا إلزاميا لمجرد أن العقل يقترحها ، ولا تلك الغايات المزدوجة ، ولا ذلك الحرص المزدوج على صون الالتحام الاجتماعى .وما هو المجتمع الذى نعنية فى الواقع حين نقول إن ثمة مطلبا اجتماعيا وراء الواجب الأخلاقى كاحترام حقوق الآخرين ، أين ذلك من أيام الحروب حين تصبح أخلاق كالخيانة والعدوان أمورا مشرفة ؟!إن مجتمعهم حينئذ يقول : إن الواجبات المقررة من حيث المبدأ واجبات نحو الإنسانية عامة ولكن بعض الظروف للأسف الشديد والتى لا يمكن تجنبها تحول دون تحقيق هذه الواجبات !!والخلاصة أن الأخلاق الاجتماعية هى أيضا مغشاة بأخلاق أخرى .بعد هذا العرض لفكرة الإلزام الخلقى فى الفلسفة اليونانية ونهاية العصور الوسطى الأوربية حيث محاولة بعث التراث اليونانى الأخلاقى والتأثر به فى ضوء الأخلاق المسيحية ثم ما نشأ نتيجة نقد تلك الفلسفات من اتجاهات معاصرة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

بعد كل ذلك .. لعل القارئ يشعر بأن كل إجابة وضعتها تلك الفلسفات قد احتوت على أكثر من تساؤل وأنها تترك فراغا جديدا أعظم من الذى أتت لتسده وأنها قد تتضمن أخطاء وعورات للإنسانية لم تنجح فى معالجتها وسترها وهذا الموقف ولا ريب جدير بأن يولد شعورا بالعدمية والامتعاض وقد تجلى ذلك بوضوح فى أخلاق البطولة المتهورة.

فريدرك نيتشة :يقول : ((فى أساس الأجناس الأرستقراطية لا مفر من الالتقاء بالعنصر الوحشى ، إنه يتنقل باحثا عن عراك دموى ، عن فريسة من اللحم ، إن الأجناس جميعا كلها تستوى فى تلك النزعة ، إن هذه الجرأة عند الأجناس النبيلة لا مبرر لها ولا غاية ، إن هؤلاء الناس لا يبالون وقاية أبدانهم وضمان حياتهم إنهم يتذوقون فى غبطة كل هدم وتدمي[١٤]!!!))

ومن ثم كان امتحان أخلاق البطولة المتهورة ممهدا لظهور اخلاق المحبة:

هنرى برجسون:يقول : ((بماذا يمتاز الموقف المفتوح ؟ لو قلنا إن النفس تحتضن فيه الإنسانية كلها لما ذهبنا بعيدا ، وإن المحبة لتبقى عند صاحبها حتى وإن لم يكن هناك كائن غيره على الأرض ..)) وهل هذا إلا وعى بشقاء لا يمكن القضاء عليه ؟ إنه تسجيل للشقاء فحسب ؟

وفى النهاية نشاهد التهافت وقد بلغ مداه على يد سارتر :يقول : ((ليس بوسع الإنسان ان يجد معونة فى علامة على الأرض تهديه السبيل وإن على الإنسان فى كل لحظة أن يخترع الإنسان[١٥]))

المبحث الرابع

الإلزام الخلقى فى الفكر الإسلامى

يحسن أولا وإكمالا للفائدة قبل عرض تلك القضية فى القرآن الكريم وإكمالا للفائدة أن نتناول باختصار شديد موقف ما يمكن هم فلاسفة الإسلام من تلك القضية ونعنى بهم أصحاب الفلسفات والأفكار التى نشأت فى العالم الإسلامى وفى ظل الدولة الإسلامية وتأثرت بالشريعة إلى حد ما وإن لم يكن موقفها دائما مطابقا وممثلا للموقف الإسلامى:

الإلزام الخلقى عند فلاسفة الإسلام:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

-١مدرسة الكندى: يرى الكندى أن النفس جسم روحانى خالد ذو شرف وكمال عظيمة الشأن جوهرها من جوهر البارى فهو مضاد لما يعرض للبدن من الشهوات والغضب ، وينتقد مذهب اللذة ويرى أنها شر لأن التشاغل بها تعطيل للعقل الذى يسعى إلى التشبه بالبارى[١٦].

ولكن النموذج الأفلاطونى قد احتل مكانا خاصا فى فكر أبو اليزيد البلخى (٣٢٢هـ) فهو يردد قول أفلاطون : إن النفس جوهر عقلى يحرك نفسه وأنه يسعى إلى ملكوت الله ، ويحاول أن يمزج بين الآراء الأفلاطونية وما تأمر به الشريعة فيقرر أن صالحى المؤمنين أفضل من الملائكة لمكابدتهم مشقة الطاعة مع منازعة الشهوات وممانعة الشيطان .ويبدو أبو بكر الرازى (٣٢٠هـ) أكثر تشاؤما حين يعرف اللذة بأنها راحة من الألم وأنها خروج عن الطبيعة فإذا استقرت صارت ألما وينشأ عن تراكمها صعوبة التخلص منها .. مع احتفاظه بالفكرة الأفلاطونية عن سعى العقل إلى التشبه بالبارى.

-٢مدرسة السجستانى الفلسفية :تتميز مدرسة السجستانى بالفصل بين الشريعة والفلسفة وقد ذكر أبو حيان أن أعضاء تلك المدرسة قد بنو فلسفتهم الأخلاقية على معرفة النفس وخلودها .يؤمن أبو سليمان السجستانى (٣٨٠هـ)بأن الخير يشمل العالم وأن الناموس ينطق بما هو صلاح عام ليكون النفع به شائعا فى سكون النفس وطيب القلب وروح الصدور ، أما العقل عند السجستانى فهو الذى يهدى ويقود إلى طريق الصلاح ، ويفرق بين العل الفعال عند الفلاسفة والعقل الإنسانى بأن العقل الفعال بمعنى الابتداء بالطبع وأن العقل الإنسانى بمعنى الانتهاء وأن نسبة اثانى إلى الأول كنسبة الفاعل إلى المفعول .أما ابن الخمار (٣٣١هـ) فيؤمن بأن العقل هو أساس الفعل الخلقى ويشبهه بالشيخ الذى إذا أنصت إليه الشاب وأطاعه أفلح واستقام فالعقل يدفع صاحبه إلى الفضائل بالضرورة ولكنها ليست ضرورة الإجبار والتى تتنافى مع الفعل الخلقى بل ضرورة لا ئقة بالعقل ضرورة اختيار ونصح وتحقيق .ويذهب يحيى بن عدى التكريتى (٢٤٦هـ) إلى أن طبيعة الشر غالبة فى الإنسان وأن أكثر الناس مجبولون على الأخلاق السيئة ولذا فإن المجتمعات الإنسانية تحتاج إلى القوانين والشرائع وكذلك تصبح الحاجة ماسة إلى الأمراء العادلين ليرفعوا الظلم ويعاقبوا الفاجر حتى يقام الاعتدال .أما أبو حيان التوحيدى (٤١٤هـ) فالأشياء عنده منبجسة من الحق الأول تفيض عنه فيضا وهو يحاكى أفلاطون فى فكرته عن التشبه بالبارى فيقول : (حرام على نفس تطهرت من أدناس الدنيا أن تدنس من مخالفة الله .. حرام على عين نظرت إلى ملكوت الله أن تحدق إلى غير الله[١٧])

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

-٣المدرسة المشائية الإسلامية: يرى الفارابى أن خصال الخير موجودة فى النفس بالقوة وأن السعادة هى الغاية القصوى التى يشتاقها العقل وهى أن يتحد بالفلك الأعلى وهذا الاتحاد يقربه من الله تعالى ولا يتسنى بلوغ السعادة الكاملة إلا للنفوس الطاهرة المقدسة التى لا يستغرقها الحس الباطن ، وقد يتعدى تأثيرها من بدنها إلى أجسام العالم.

ويعد ابن سينا أكثر تفاؤلا واقعية فهو يؤمن بأن العالم كله خير وأن الخير يفيض عليه من المبدأ الأول ، ولما كان عالمنا هذا عالم كون وفساد فلا بد أن يكون الشر على جانب الخير ومع ذلك فالخير هو الموجود أما الشر فعارض والعقل وحده كفيل بالتمييز بين الخير والشر.

وهو لا ينكر أن كل كائن إنما يسعى إلى اللذة ، وأن السعادة الإنسانية لا تكون إلا فى مجتمع ، وأن الشريعة والنبوة لا غنى لبقاء الإنسان وسعادته عنهما فالنبى يأتى بقانون يضمن للبشرية الرفاهية والسعادة .أما أبو البركات البغدادى فقد اصطدم بفكرة العقل الفعال وحاول أن يجد حلا لها فذهب إلى أن الأساس فى التعقل ليس هو العقل الفعال بل نماذج مثالية معقوله شبيهة بالمثل الأفلاطونية فيقول : إن النفس تستطيع تحصيل الكمال بذاتها دون الحاجة إلى شىء آخر بالفعل لكى يوصلها إلى درجة الكمال .ورغم أن الإنسان(المتوحد) هو إلهى فاضل بالأفعال العقلية إلا أن ابن باجة الأندلسى (٥٣٣هـ) صاحب كتاب تدبير المتوحد يرى أنه يشارك فى كل طقة فى أفضل أحوالها ويتفرد عليهم بما يفيض عليه العقل الفعال من أنوار المعرفة[١٨].

-٣المعتزلة :يعد مذهب المعتزلة فى الواجب الأخلاقى مذهبا صوريا مجردا عن عوامل الزمان والمكان ولا يرتبط تطبيقه بشخص أو بآخر بل هى أمور عامة تحمل طابع الضرورة الأخلاقية.

من أجل ذلك رفض المعتزلة فكرة اتخاذ الدين مصدرا لإلزام الخلقى لما فى ذلك من العودة إلى مذهب الغائية ، كما أنهم نكروا اعتبار مبدأ المواضعات الاجتماعية والأعراف مصدرا للإلزام لأن ذلك يتضمن القول بنسبية الأخلاق وهذا يلغى تماما الأخلاق المطلقة ، كما أن الواجب ليس دائما مقرونا باللذة أو المنفعة بل كثيرا ما يقترن الفعل الأخلاقى الحسن بالألم.

إن المعتزلة تركز مبدأ الإلزام الخلقى فى الإنسان نفسه فى عقله وحريته يقول الجبائى)) :لا يجب على الله تعالى شىء لعباده فى الدنيا ما لم يكلفهم عقلا وشرعا ، فأما إذا إذا كلفهم فعل الواجب فى عقولهم واجتناب القبائح وخلق فيهم الشهوة للقبيح والنفور من الحسن وركب فيهم الأخلاق الذميمة فإنه يجب عليه عند ذلك التكليف إكمال العقل ونصب الأدلة والقدرة والاستطاعة فالعقل إنما سمى عقلا لأن الإنسان يمنع به نفسه[١٩]((.. ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المعرفة ملجئة إلى الفعل إذ لو كانت كذلك لفقد الإنسان حريته واختياره وإنما هى بمفردها من جملة الواعى .. إن المعتزلة قد سبقوا فلاسفة الغرب وسبقوا كانط فى هذه القضية وهى القول بأن الحسن يتضمن فى باطنه مصدر الإلزام الخلقى لأن حسنه ذاتى فيه ومعرفة الإنسان وجه الحسن عقلا شرط لإلزامه به..

٤- المدرسة الأشعرية:

لقد وازن الأشاعرة بين العقل والنقل فى مجال الحكم على الأشياء فعولو على الشرع كمصدر للإلزام وفى الوقت ذاته لم يهملوا العقل فمعرفة القيم الأخلاقية والخير والشر إنما هو عن طريق الشرع ويأتى العقل تابعاً بالنسبة لهذه المعرفة ،ومن ثم حدد" أبواسحق الإسفراييني" مسألة خلقية الأفعال البشرية من خلال أن الأفعال والأحكام الخلقية لاتستمد شرعيتها من الأفعال ذاتها ولا من صفاتها وإنما تستمد شرعيتها من قول الله على حد تعبيره[٢٠].

وإذا كان البعض يرى غلبة النزعة العقلية عند متأخرى الأشاعرة – كالإمام الرازى – كمصدر للإلزام الخلقى وغيره فإنه بالتدقيق يظهر أن النقل له هيبته وقدسيته التى لم يزحزحها سلطان العقل عندمتأخرى المذهب.

●الضمير كمصدر للإلزام عند فلاسفة الإسلام:

تعريفه :(١) عرف الضمير بأنه قوة تميز الخير من الشر وتأمر بالأول وتثيب عليه بالارتياح والطمأنينة وتنهى عن الثانى وتعاقب عليه بالتأنيب والندم(٢)[٢١]. كذلك عرف بأنه القوة الخفية النابعة من نفس الإنسان التى توضح له طريق الخير ، وترفعه إلى سلوكه وتبين له سبيل الشر ، وتحذره منه ، ويشعر الإنسان براحة فى طاعة هذه القوة،وبتأنيب عند عصيانها[٢٢].

والضمير ككلمة قد كثر استعمالها أخيرًا، وشاعت أكثر ما شاعت الأوساط الغربية، كمظهر من مظاهر الرُّوح العامة للنهضة الأوروبية التي اتجهت بفكرها وسلوكها بعيدًا عن الدِّين، حيث جعلوا الإحساس الداخلي بديلاً عنه، فهو يتولى التمييز بين الخير والشر، ويدعو إلى الأول وينهى عن الثاني، وشاع استعمال هذا اللفظ أيضًا في الشرق تقليدًا للغرب. وهو وإن لم يرد كثيرًا في الاستعمال القديم بهذا المعنى فقد تحدَّث فلاسفة الأخلاق كالغزالي وابن مسكوَيْه عن مُهمته بعنوان آخر، ففي إحياء علوم الدين عند شرح الغزالي عجائب القلب قال: إنها نَفْسُ الإنسان التي تُوصف بالمطْمَئِنَّة إذا سَكَنَتْ تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات، والتي تُوصف باللَّوامة إذا لم يتم سكونها واعترضت على النفس الشهوانية، كما تُوصف بالأمَّارة بالسوء

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

إن تركت الاعتراض وأطاعت الشهوات، كما تحدث عنها في كتاب المراقبة والمحاسبة ضمن كتاب "الإحياء" وعبَّر عنها مرة بالنور الإلهي وأخرى بالمعرفة، والهادية للمرء في أعماله إن هناك حديثًا يدُل على وجود هذه القوة الباطنة وهو حديث وَابِصَة ابن معبد الذي سأل رسول الله r عن البِر والإثم فقال له: "يا وابصة، استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النَّفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حَاكَ في القلب وتَرَدَّد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك" رواه أحمد، وروى مسلم قوله" r البر حُسْنُ الْخُلُق، والإثم ما حَاكَ في صدرك وكرهت أن يطَّلِع عليه الناس" وروى البغوي في مصابيح السُّنة "من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مُؤمن ."

والغزالي يرى أن نشاط الضمير يظهر في ثلاثة مواطن، الأول قبل الشروع في العمل، بالنظر إلى الباعث عليه، فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغيره انكفَّ عنه، والثاني عند الشروع في العمل، بقضاء حق الله فيه، وإنجازه على أكمل ما يُمكن، والثالث بعد العمل، وذلك بمحاسبة النفس على ما وقع منها[٢٣] .

ومهما يكن من شيء فإن الضمير بالمعنى الذي يريده فلاسفة الغرب تحدَّث عنه علماء الإسلام، لكنهم تناولوا بالحديث آثاره وخواصه، أما ماهيته فقد أحجم الغزالي عن تحديدها؛ لأنه ليست هناك فائدة عملية من معرفة كُنهها، وذلك من اختصاص الله سبحانه أما ابن مسكويه: فقد بنى نظريته الأخلاقيه من خلال حديثه عن النفس الإنسانية فالنفس عند ابن مسكويه جوهر مغاير لجوهر الجسم لأنها لا تتغير ولا تستحيل بتغيره واستحالته ، وكل يتشوق إلى ما يناسبه فكما أن الجسم يتشوق إلى أفعال لا تشتاقها النفس فكذلك النفس تشتاق إلى ما يناسبها كالحرص على معرفة الأمور الإلهية وإيثارها وانصرافها عن والشهوات اللذات الجسمية ، وهو يتنبى قول سقراط بأن الفضيلة هى المعرفة وأن الإثم الأخلاقى إنما هو جهل وسوء تقدير. وقد تكلم عن الضمير وأهميته بالنسبة للإلزام الخلقى حال حديثه عن النفس وقواها الثلاث فى كتابه تهذيب الأخلاق حيث ذكر أن منها القوة الباطنة أو العاقلة ووصفها بأنها قبس من النور قذف به الخالق إلى النفس البشرية ليكون لها هاديا ومرشدا وصرح بأن أصل هذه القوة هو الميل للخير والنفور من الشر — ويرى — أن الإنسان إذا رجع لنفسه عند إتيان عمل من الأعمال وجد أن فى قرارتها قوة تأمره بالخير وتشجعه عليه وتحذره من الشر وتثبطه عنه وأنه إذا عمل بوحيها أحس ارتياحا وطمئنينة وغبطة لأنه عرف لنفسه كرامتها ، وإن عصاها أحس بألم ينال منه أشد منا لو بندم يدعوه للتوبة والإنابة[٢٤]

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

●نظرة الإسلام إلى العقل والضمير كمصدرين للأخلاق:

الدور الذى يقوم به الضمير في مجال أخلاق:

إن المتتبع لما تقدم من حديث حول ماهية الضمير يجد أنه يعول عليه كمصدر من مصادر الأخلاق وله أدوراً يمثلها فى المجال الأخلاقى حيث تتمثل في:

(١)الاكتشاف والتمييز : وفيه يفرق الضمير بين طريق الغى وطريق الرشاد ، فإن أبرز نتيجة اكتشافه انتقل إلى الدور الثانى.

(٢)الناصح الأمين : وهذا هو الدور الثانى للضمير فإذا أتم مهمته ودفع العمل الإنسانى الصحيح بالفعل انتقل إلى دور القاضى العادل.

(٣)القاض العادل : وفى هذا الدور يقوم الضمير بالحكم على الفعل الإنسانى فإن كان مطيعاً فهو مستحق للثواب، وإن كان عاصياً فهو مستوجب للعقاب.

(٤)السلطة التنفيذية : وفى هذا الدور ينفذ الضمير ما أصدره من أحكام فى المرحلة السابقة، فيسبغ على من أطاعه حلل السعادة النفسية والراحة والطمأنينة ،ويزيق من عصى أوامره وتوجيهاته سوط العذاب من التعاسة والندم [٢٥]. إذاً ففلسفة الضمير فى مجال الأخلاق عامة، والمهنة خاصة، تظهر فى نواح ثلاثة:

(١)قبل قيام الإنسان بالعمل

(٢)فى أثناء قيامه به

(٣)بعد إتمام العمل

لكن الضمير لن يستطيع القيام بسلطاته ووظائفه فى مجال الأخلاق المهنية وغيرها إلا إذا استند على معيار ثابت عنه تصدر أحكامه، ومنه يستلهم أوامره. ولن يوجد ذلك إلا فى الدين وتعاليمه .أما الضمير المطلق فإنه فى كثير من الأحيان عرضة للزيغ والضلال فى أحكامه وتوجيهاته.

●عوامل انحراف الضمير:

إن الضمير المطلق الذى نادى به كثير من فلاسفة الغرب كمصدر ومعيار للأخلاق تسهم عوامل كثيرة فى انحرافه عن جادة الحق والصواب ، من هذه العوامل :

)البيئة (فكثيراً ما تنشأ فى البيئة عادات خاطئة يشب على حبها الولدان ، ومن ثم تشكل ضمائرهم فلا ينزعجون إذا ما اقترفوها بل كثيراً ما يجدون الراحة فى ارتكاب تلك الآثام والشرور التى نشئوا عليها ،ولاأدل على ذلك من عادة "الثأر" لدى بعض العائلات فى صعيد مصر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

)العواطف والانفعالات (فالمشاعر غير الواعية كثيراً ما تعمى الضمير عن الحق والعدل.

)العادات السيئة (فالمرء إذا ما اعتاد فعل شيء قبيح فإن ضميره يتعود على ذلك الأمر، وكأنه أنس إليه أو رضى به، لأن الضمير من كثرة ممارسة صاحبه لذلك الأمر يأتى عليه وقت يفقد حساسيته بالنسبة لما اعتاد عليه.

)المصلحة الشخصية (فكثيراً ما يضعف الضمير أمام المنفعة الذاتية ،أو المصلحة الشخصية ،وإذا ما حاول الضمير أن يرفع صوته فسرعان ما يسكته صاحبه بالحجج والمسوغات الباطلة[٢٦].

●مدى صلاحية الضمير كمصدر ومعيار في المجال الأخلاقى :

إن الضمير المطلق الذى وجد فيه بعض الأخلاقيين ضالتهم فاعتمدوه مصدراً أو معياراً للأخلاق ،يمكن أن نقرر أنه لايصلح أن يكون مصدراً للأخلاق وذلك لما يأتى:

-١أن تصور الضمير على أنه غريزة فطرية أو شئ مكتسب من البيئة كما سبق وتقدم يؤدى إلى نسبية الأخلاق ونسبية الخير والشر فى مجال العمل المهنى ،وقد تقدم تفصيل ذلك وبيانه.

-٢أن الإنسان لايمكنه أن يكتفى بضميره فى وضع القوانين الاجتماعية أو المهنية ،والدليل على ذلك حالات الانهيار الاجتماعى والأخلاقى التى تسود المجتمعات فى فترات الإلحاد التى مرت بها قديماً وحديثاً.

-٣أن ما ذكرناه سابقاً من عوامل تؤدى إلى انحراف الضمير تجعلنا لانركن اليه ولا نعول عليه كمصدر للأخلاق المهنية، أو مقياساً لها ،ذلك أن كثيراً من الأفعال تحتاج إلى تحليل واستدلال لمعرفة ما إذا كانت خيراًأو شراً ومن ثم لايكفى الضمير وحده لمعرفتها.

-٤أن الضمير المطلق نسبى متغير، ومن ثم لايمكن تأسيس الأخلاق على النسبى المتغير،لأنها ينبغى أن تكون عامة وكلية ومطلقة[٢٧]. ولعل الدليل على نسبية الضمير وتغيره وجود ذوى الضمائر المريضة الذين يقترفون الآثام والشرور زاعمين راحة الضمير ، وقد اشار القرآن الكريم إليهم بقوله: " قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا " الكهف (١٠٤) . يقول اندريه كريسون " الناس فى كل العصور وفى كل الأقطار يستشيرون ضمائرهم ، ولكنها لاتسمعهم جميعاً لحناً واحداً لأن ما يظهر عدلاً وخيراً لبعض النفوس الإصلاحية والمخلصة فى عصر خاص لايظهر عدلاً ولا خيراً لنفوس أخرى [٢٨]

.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

-٥كذلك نجد فى تعريف الضمير كما هو موجود فى معجم "لالاند" أوصاف تقترن به تبعاً للأحوال المختلفة " من وضوح وغموض وريبة وخطأ [٢٩]" مماا يجعلنا نتريث في الركون إليه كمصدر ومعيار للأخلاق . فمن كان صفته وحاله هكذا كيف يكون معياراً لتبين الخير والشر! .

-٦إن أحكام الضمير تكون مبهمة لاوضوح فيها فكيف نعتمدها منبعاً ومعياراً للأخلاق المهنية أو غيرها.

-٧وفى النهاية نجد أن كلمة" ضمير" من حيث هذا المفهوم الأخلاقى المطلق لاوجود لها فى معاجم اللغة العربية كما أنها من حيث فكرة مرجعيتها كمصدر للأخلاق، وضابط لها، ظهرت وانتشرت فى عصر النهضة الأوربية عندما قضى زعماء الثورة على الكنيسة فأشاعوا هذه الفكرة ; لتكون بديلاً عن الدين فى مجال الأخلاق فكانت النتائج على ما نراه اليوم[٣٠].

❖المقياس العقلي في المجال الأخلاقي في الميزان:

من خلال ما تقدم من حديث عن العقل ودوره فى المجال الأخلاقى، يمكن أن نورد عدداً من الملاحظات التى من خلالها يكون عمل العقل- مطلقاً بلا قيد-درب من العبث من ذلك

(١)أن المقياس الخلقى يشترط فيه أن يكون عاماً لايختلف باختلاف الزمان والمكان والعقل ليس كذلك بل هو فى تفكيره وادراكه للأشياء وإبداء الحكم عليها يختلف باختلاف الزمان والمكان ،بل ويختلف فى حق الشخص الواحد من مرحلة عمرية إلى أخرى تبعاً لما يحيط بها من ظروف وأحوال.

(٢)أن العقل فى أحيان متعددة يقوم فى أحكامه وتصوراته، على أسس خاطئة مخالفة للدين والتربية وتهذيب الأخلاق.

(٣)أن العقل محدد وقاصر ،لاعلم له إلا بظواهر الأشياء وهو عاجز تماماً عن استكناه النفس الإنسانية ووضع القانون الذى يلائم طبيعتها، لأن هذا من اختصاص من خلق النفس و يعلم كننها وما يصلحها، وما يناسبها من تشريعات.

(٤)إذا ما استطاع عقل بشرى أن يضع تشريعاً ، فإنه سوف يكون قاصراً ومحدوداً لأنه لن يستطيع أن يقيم العدل بين الناس جميعاً. بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم. إذ الناس مختلفون أشد الاختلاف فى العقول والاستعدادات والبيئات، وكل ذلك يقف عقبة أمام العقل البشرى المحدود فى وضع التشريع الذى يحقق العدل بين الناس كافة.

(٥)أن العقل فى أغلب أحواله يقنن للأشياء ويصدر حكمه عليها تبعاً للمصلحة ،وأمر كهذا من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

شأنه أن يقودنا إلى نسبية الخير والشر والفضيلة، والرذيلة وما يقترن بهما من أسس وأحكام. لاسيما إذا ما تضاربت المصالح وتعارضت المنافع ، وكثيراً ما يقع ذلك . ومن ثم يرى "اسبينوزا " أن " الخير والشر أمران نسبيان ولهذا فإن الشيء الواحد يرى خيراً أو شراً وفقاً للأوجه التى ننظر منها إلى الشيء [٣١]" وهذه دعوة للسوفسطائية ومذهبها فى مجال الأخلاق.

(٦)كذلك نجد حالات الانهيار الاجتماعي والأخلاقي التى تسود المجتمعات فى فترات الإلحاد قديماً وحديثاً ،خير شاهد على عدم كفاية العقل للتقنينات الأخلاقية، ووضع أطر الفضيلة ومعايير الخير والشر بين الناس.

(٧)أيضاً نجد أحكام العقل المطلق لايأخذ صاحبها إلا برأيه الذى كونه لنفسه ،غير مقيد بعرف أو قانون أو مبدأ نظرى عام .[٣٢]

(٨)أن العلوم العقلية تصيب وتخطىء والقانون الأخلاقى الذى ننشده لابد له من مصدر معصوم[٣٣].

(٩)كذلك نجد عوامل كثيرة تحول بين العقل وبين التفكير المستقيم، والوصول إلى الحكم الصحيح على الأشياء منها:

[IMΓ]φιλε:///X:/ΔΟΧΥΜΕ~1/ΔΡΕ73Β~1.ΜΟΗ/ΛΟΧΑΛΣ~1/Τεμπ/μσοητμλ1/01/χλιπ_ιμαγε001.γιφ[/IMΓ]اتباع الهوى : وقد حذر الإسلام منه، فى قول الله سبحانه وتعالى" :*ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله*."

[IMΓ]φιλε:///X:/ΔΟΧΥΜΕ~1/ΔΡΕ73Β~1.ΜΟΗ/ΛΟΧΑΛΣ~1/Τεμπ/μσοητμλ1/01/χλιπ_ιμαγε001.γιφ[/IMΓ]التقليد :و من خلاله يسلم الإنسان زمام عقله لغيره، ومن ثم حكى القرآن الكريم عن قوم ضلوا قولهم: " إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ "الزخرف (٢٣)وهذا هو التقليد.

[IMΓ]φιλε:///X:/ΔΟΧΥΜΕ~1/ΔΡΕ73Β~1.ΜΟΗ/ΛΟΧΑΛΣ~1/Τεμπ/μσοητμλ1/01/χλιπ_ιμαγε001.γιφ[/IMΓ]الافتتان بمشاهير المجتمع: وقد حذر الله سبحانه وتعالى منه في قوله :" تَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ "التوبة . (٣١)وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم : كيف يعبد هؤلاء أحبارهم ورهبانهم ؟ فقال : "أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم ". وما اتباعهم لهم إلا افتتاناً بهؤلاء المشاهير من أصحاب السلطة الدينية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

[IMG]φιλε:///X:/ΔΟΧΥΜΕ~1/ΔΡΕ73Β~1.ΜΟΗ/ΛΟΧΑΛΣ~1/Τεμπ/μσοητμλ1/01/χλιπ_ιμαγε001.γιφ[/IMG]الإرهاب الفكرى

:فمتى شعر العقل بالمؤاخذة على تفكير يبديه ،أحجم واحتفظ به داخله ، وربما تعطل عن التفكير نتيجة الإرهاب المتسلط عليه ، وربما حصر تفكيره فيما يرضى به المستبدين ،وهذا ما دعا فرعون إلى أن يعلن فى تسلط وتجبر قائلاً :" مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ . [٣٤]" غافر (٢٩)

لأجل ما تقدم وغيره يمكن أن نقرر أن العقل الإنسانى لايمكن أن نركن إليه فى تكوين قانون للأخلاقى يكون مصدرا للتشريع والتقنين .

●قانون الأخلاق فى الإسلام:

عرفنا مما سبق أن المعايير الأخلاقية من خلال " العقل والضمير"غير صالحة–على إطلاقها– للإلزام وللتقنين في مجال الأخلاق ، أوأن تكون مقياساً لها.و قد سبق بيان علة ذلك .أما بالنسبة للإسلام وما نستخلصه من تشريعاته فإنها جديرة بأن تكون منبعاً للقيم الأخلاقية وأن تكون معياراً تقاس به تلك الأخلاقيات ومحلا للإلزام فيها . فلقد تعارف الناس – فى ضوء معايير شهد الواقع بصدقها – أن أى صنعة لشىء مما تناولته أيديهم إذا حدث به عطب أو خلل فإنهم يردونها إلى من هو أعلم بها ، والأعلم بها هنا هو صانعها ومنشؤها ،الذى يمد الناس بداية بطرق العنايةبها ، ومثالية الاستعمال لها، كى يضمن الجودة والاستمرارية لما صنع.وانطلاقاً من ذلك فالإنسان والكون الذى طرء عليه صنعة الله تعالى، ومن ثم فإنه سبحانه هو الأقدر وليس غيره ، على وضع وتشريع ما يضمن له حسن عمله وعمارته لهذه الحياة ،وحسن استخلافه فيها ،فمن قوَم له خلقه هو الأقدر على أن يقَوم له خُلقه ومن ثم كان قول الله تعالى" أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ "الملك (١٤)

من أجل هذا، كان تبيان وتفصيل النظام الأخلاقى الحق، بلا إيهام أو خلط فى كتاب الله سبحانه وتعالى: " مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "يوسف (١١١)وليس هذا التفصيل عن جهل أوعبث، وإنما موضوعية عالم، يهدى به من استمسك بحبله، واعتصم بحكمه "وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "الأعراف (٥٢")وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ "النحل. (٨٩)

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولكى نكون على بينة من هذا فإننا نتناول قانون الأخلاق الإسلامى من خلال عدة جهات:

أولاً : جهة الواضع (المصدر:)

أما الواضع فهو الله تعالى الذى خلق الإنسان وخلق الكون والحياة ،وإذا كان الأمر كذلك فهو الأعلم بما يصلح حال الإنسان والكون الذى طرء عليه، ومن ثم فإن الله تعالى هو الأجدر بوضع القانون الذى به يتعامل الإنسان مع بنى جنسه ونوعه ،وبه أيضاً يتعامل ويتفاعل مع كافة مناشط الحياة.فى حين أن المعايير الأخلاقية السابقة عاجزة عن أن تقود مسيرة الإنسان فى الجانب الأخلاقى وذلك لأن" الأخلاق الإنسانية فى وضعها السليم ينبغى أن تكون معصومة المصدر ،ولا يكون مصدرها إلا إلهياً . وإلا سقطنا إلى الإذعان لكم هائل من المتناقضات فى الأخلاق والسلوك الاجتماعى. [٣٥]"

ثانياً : جهة الموضوع:

وإذا أتينا إلى جهة ما تناولته القوانين الإلهية من حيث موضوعها،فإننا نراها وقد تمثلت فى مجموعة الأوامر والنواهى التى شرعها الله سبحانه وتعالى لخلقه،والتى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وذلك لأنها نزلت من لدن حكيم خبير عليم ،وقد شرعها لنا لتكون مشعلاً نهتدى به فى جميع أمورنا ،ونسير على سنتها فى معاملاتنا وسائر أحوالنا . وهذه القوانين التى توجت بالشريعة الإسلامية ثابته لاتغيير فيها ولا تبديل،عامة خالدة،صالحة لكل زمان ومكان ولجميع الناس على السواء، فهى لذلك صالحة لأن تكون مقياساً أخلاقياً إذا فهمنا حكمها وأسرارها[٣٦] ،فهماً مستقيماً . من هذا المنطلق تفرعت الأخلاق فى الجانب المهنى وغيره من الجوانب الحياتية عن القوانين الإلهية،فصدرت منها ونبعت عنها . ولو فهمت القوانين الإلهية- لاسيما فى الدين الإسلامى – حق فهمها لتكَون منها مذهب خلقى لايقف بأثره عند حدود المجتمع الإسلامى فحسب، بل سيمتد ليشمل المجتمع الإنسانى والكون كله . ولا غرابة فى ذلك فالقانون الإلهى كمرجعية أخلاقية يطالب الناس كل الناس، ويلتمس منهم إقامة نظام للحياة ينهض بنيانه على المعروف، ولا يشوبه شيء من المنكر،يدعوهم إلى أن يقيموا الخيرات فى كل زمان ومكان، وأن يشيعوا الفضل والمعروف فى العالم بأسره ،وذلك لأن القيم الإسلامية التى استلهمت مادتها من هدى السماء تحقق وظائف عدة : ففيما يتعلق بالفرد تحاول هذه القيم رفعه فوق مرتبته الراهنة، وتعمل على العلو به عن المستوى الحيوانى الذى يقف على أعتاب المادة متبتلاً فى محرابها، إلى المستوى اللائق به كإنسان نفخ فيه من روح الله واستخلف فى الأرض من قبله سبحانه لعمارة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الكون والحياة.وفيما يتعلق بالمجتمع فإنها تحقق أعظم رابط بين أفراده، إذ تسمو بالجماعة من المرتبة الحيوانية إلى المرتبة الحضارية والمدنية ،وتقيم الصلات بين الأفراد والهيئات على أسس كريمة وغايات نبيلة .من هذا المنطلق يمكن القول أن قانون الأخلاق الإسلامى من حيث موضوعه لم يدع "صغيرة ولاكبيرة تتعلق بالنشاط الإنسانى إلا وقد رسم لها منهجاً للسلوك تفصيلاً حيناً وإجمالاً حيناً آخر ، فنظم علاقة الإنسان بربه تبارك وتعالى،ونظم علاقة الإنسان بنفسه، وعلاقته ببنى جنسه، بل تخطى ذلك إلى علاقة الإنسان بالكون[٣٧]"

ثالثاً: جهة أساس التشريع:

ومن خلال هذه الجهة يرتكز قانون الأخلاق الإسلامى فى القيام على الحكم المعقولة، والمبررات المقبولة، التى تخاطب الإدراك السليم ،والوجدان النبيل، بالأسباب المقنعة التى تبرر أمر السماء وتبين أنه ليس تحكماً مفروضاً بلا تعقل. بل شُرع لمصلحة اقتضت ذلك ومن أعلم بمصلحة العباد من خالقهم. لذا كان قول الله تعالى" إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر" وقوله تعالى "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتذكيهم بها " فقانون الأخلاق فى الإسلام حين يطالب الإنسان بشىء أو ينهاه عنه، لايرضى منه أن ينفذ ذلك تنفيذاً قسرياً آلياً خضوعاً لصولة حكمه فحسب، وإنما يطلب من الإنسان أولاً وقبل كل شىء أن تسرى هذه الأوامر فى كينونته حتى تنفذ إلى أعماق ذاته، وشغاف قلبه، فيتشربها، ثم تفيض منه انبعاثاً نفسياً وذاتياً.[٣٨] ومن ثم كانت أول خطوة يخطوها الإنسان نحو الواجب المهنى وغيره هى الإيمان بذات الفعل وأخلاقيته ،وكانت الخطوة الثانية، أن ينبع الفعل من ذات الإنسان ونفسه، وإلا كان عمله فى نظر قانون الأخلاق الإسلامى هباء منثورا.

رابعاً : الباعث على العمل والدافع عليه:

ونلج إلى هذه الجهة من خلال المسئولية الخلقية للإنسان بالنسبة لأعماله. حيث جعل قانون الأخلاق الإسلامى الإنسان مسئولاً عنها " إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً " الإسراء (٣٦ .)ومن هنا تظهر فائدة الأخلاق الدينية للكون كله لأن هذه الأخلاق تسأل الإنسان أمام محكمة ذاته، المؤسسة على تعاليم خالقها وباريها ،وتسأله أيضاً فى ساحة العدل الإلهى الذى لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا حاسب عليها .من هذا المنطلق كان من بواعث العمل فى الحياة الطمع فى ثواب الله ،والخوف من عقابه ،يقول سبحانه فى حق الثواب " إِنَّ الَّذِينَ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ " البينة (٧،٨) .(ويقول سبحانه وتعالى فى مقام العقاب " قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا "الكهف . .(١٠٣،١٠٤،١٠٥) وليس رد الباعث إلى الثواب والعقاب هو كل ما فى قانون الأخلاق الإسلامى ،بل هناك أيضاً الواجب لذات الواجب والحق لذات الحق، الذى من خلاله يكون الفعل لله تعالى وبالله وإلى الله .وهذا هو الباعث الأعلى والمقصد الأسمى فى نظر قانون الأخلاق الإسلامى " وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى " الليل-١٧) (٢١ويقول المولى عز وجل "ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله " وفى حق الارتياح والرضى لآداء الواجب يقول تعالى " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ " الغاشية (٨ (ويقول النبى " r من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن .[٣٩] "وعندما يتحدث القرآن الكريم عن المقيم فى الجنة يعقب ذلك بقوله :" وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ " التوبة. (٧٢) وفى هذا تأكيد للباعث الروحى من الالتزام الخلقى فى مجال المهنة وغيرها ، وتأسيساً على ما تقدم يمكن القول " إذا كانت أنواع الأغذية التى قررها القرآن الكريم للفضيلة والرزيلة لاتحصى كثرة، إلا أن الهدف الذى وضعه نصب عين العامل، هدف واحد لاتعدد فيه وهو وجه الله سبحانه وتعالى محضاً خالصاً، وهذا تعبير روحى عن معنى آداء الواجب لذاته، وهو معنى نجده فى القرآن فى أكثر من ألف موضع .كلها تحث على الفضيلة لما لها من قيمة ذاتية بغض النظر عن كل آثارها [٤٠]"، وبهذا يتضح لنا أن قانون الأخلاق فى الإسلام ليس ضيق النظرة أو أحادى الجانب كما هو الشأن فى كثير من النظريات الأخلاقية ،وإنما هو قانون يمتاز بهيبته فى النفوس وشموله وكماله الذى لا يرنو إليه أى كمال. حيث انضوى تحت جناحيه العناصر الفردية، والاجتماعية، والإنسانية ومن قبل ذلك الإلهية. فى تناسق رائع لامثيل له فى أى دين أو مذهب أخلاقى.

❖موقف قانون الأخلاق الإسلامى من العقل والضمير كمصدريين للإلزام:

تعرضنا فيما سبق لبيان ماهية القانون الأخلاقى فى الإسلام،ومن الأهمية بمكان أن نبين موقفه من المقاييس الأخلاقية السابقة. ومن ثم نقول إن قانون الأخلاق الإسلامى لايقف على طول الخط موقف المعارض من المقاييس الأخلاقية السابقة، وإنما موقفه منها موقف الناقد،المنتقى،والموجه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

.ومن هذا المنطلق تصدرت نظرته إليها،و التى تتبلور فى قبوله لها، ولأحكامها فى ضوء مرجعية معصومة تستند إليها ،وفى ضوء ضوابط تحيط بها من كافة جنباتها لئلا تزيغ أو تضل . وإذا كان قانون الأخلاق الإسلامى مصدره الوحى الإلهى فليس معنى هذا أنه يتصادم مع ما يقرره العقل الإنسانى ،وكيف يكون هذا وهما فى نظر الإسلام يجمعهما مصدر واحد.كما أن أحكام العقل المحفوفة بالضوابط الشرعية التى تمنعها من الضلال محل تقدير من الإسلام وتشريعاته، بل فى كثير من الأحوال تعد نوعاً من الاجتهاد الذى يؤجر عليه صاحبه .وإذا نحى العقل جانباً فى بعض المجالات التى تعلو فوق إدراكه ،فهذا ليس حطا من شأنه وإنما هو تكليف له وفق الوسع والطاقة، وتفريغ له لمهمته التى تكمن فى عمارة الكون والحياة . أما بالنسبة للضمير فأمره كذلك معتبر فى ضوء المرجعية المعصومة التى عنها تصدر أحكامه ،وفى ضوء الضوابط الشرعية التى يراعيها كى لا يضل أو يشقى ،ومن هنا فالضمير المعتبر لدى قانون الأخلاق الإسلامى هو الضمير الموجه والمستنير بفضل تعاليم الكتاب والسنة.وهو الضمير الذى حددت له الواجبات ووضحت له المحرمات بصورة تدفعه وتهيئه للالتزام بما يجب ،والتنزه عما هو محرم .وهو الضمير الذى له مقياس ثابت وحكم محدد فى قضايا الأخلاق .ومن ثم كان ل ه اعتباره فى القرآن الكريم حيث يقول الحق سبحانه:" بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ " القيامة (١٤.)وكذلك له منزلة فى السنة المطهرة حيث يقول النبى " r إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه [٤١]" وقوله r لوابصة ابن معبد رضى الله عنه " جئت تسأل عن البر؟ قلت نعم قال: البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ،وإن أفتاك الناس وأفتوك [٤٢]" وحتى عند الحساب بين يدى رب العزة والجلال يكون لسلطان الضمير هذا الدور الهام الذى يعبر الحق سبحانه وتعالى عنه بقوله " اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا "الإسراء(١٤ .)ومن خلال التصور السابق للضمير فى قانون الأخلاق الإسلامى كان قول الإمام الغزالى الذى يعبر فيه عن أهمية الضمير فى ترسيخ الأخلاق المهنية " للمراقب فى عمله نظران : نظر قبل العمل ،ونظر فى العمل؛ أما قبل العمل فلينظر أن همته وحركته :أهى لله خالصة ،أم لهوى النفس ومتابعة السلطان ؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ؛فإن كان لله تعالى أمضاه،وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكشف عنه . وأما النظر الثانى للمراقب عند الشروع فى العمل،فذلك يتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه،ويحسن النية فى إتمامه ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه [٤٣]"وبعد أن وضع الإمام الغزالى معايير الأخلاق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فى حديثه السابق يشرع فى بيان محاسبة النفس بعد العمل فيقول" ينبغى أن يكون للمرء آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ، كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا[٤٤]" ..

من هذا المنطلق كانت نظرة القانون الأخلاقى الإسلامى للمعايير السابقة نظرة المنتقى الناقد البصير، لانظرة المستسلم المنقاد بلا فكرأو روية

●الإلزام الذاتى في التصور الإسلامى:

إن المواثيق الوضعية في مجال الأخلاق ، تفقد فى كثير من حالاتها صفة الإلزام. لأن طاعة القانون خوفاً من العقاب أو رغبة فى الجزاء لايمكن أن تأخذ صفة الإلزام،ولا يتوافر لها عنصر القوة الذى هو ضرورى لسيادة هذا القانون واحترامه فى جميع الأحوال وتحت كل الظروف ،فسرعان ما يعصى القانون عند أمن اطلاع السلطة الزمنية على المخالفة،لأجل ذلك ضل الناس فى تمسكهم بالمواثيق الأخلاقية المهنية ،فرأينا من شيد بنياناً من المهندسين على شفا جرف هار فانقض فوق ساكنيه مخلفاً الجثث والأشلاء ،ورأينا المحاسب الذى يختلس مما اؤتمن عليه،ورأينا ملاك الرحمة الذى يتاجر فى أعضاء البشر،ورأينا العالم الذى يتخفى عن أعين الناظرين فى معمله ليخرج علينا بمسوخ مشوهة تحت مسمى الاستنساخ، مخالفاً بصنيعه الأعراف، والمواثيق، والأخلاقيات المهنية .وغير ذلك كثير فى شتى المجالات التى حفل بها النشاط البشرى، وجدنا خرقاً بيناً للأخلاق على شتى الأصعدة والمستويات، مما برهن معه بيقين لا يمازحه شك على فشل المقاييس الوضعية المطلقة من كبح جماح الانحراف عند الناس تقنينات الوضعيين والاجتماعيين، أو العقليين، أو القائلين بأخلاقية بلا إلزام، كما عند الفيلسوف الفرنسى "جويو" الذى ألف كتاباً يحمل هذا العنوان.من هنا كانت أهمية فكرة الإلزام التى تعد هى العنصر الأساسى أو المحور الذى تدور حوله المشكلة الأخلاقية ويقصد به"القوة التى لها سلطان على الإنسان وما يصدر عنه من أفعال وبموجبها يمكن الحكم على الأشياء بالخير أو الشر .[٤٥]" وإذا كان هذا هو معنى الإلزام فإن انعدامه يقضى على جوهر الحكمة العقلية والعملية التى تهدف الأخلاق إلى تحقيقها . فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسئولية ،وإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه ، وإقامة أسس العدالة . وحينئذ تعم الفوضى ويسود الاضطراب ،لافى عالم الواقع فحسب ،بل من الناحية القانونية ومن وجهة نظر المبدأ الأخلاقى ذاته ،وإذا كانت الأخلاق تؤول فى النهاية إلى مجموعة من القواعد ، فكيف يتسنى للقاعدة أن تكون قاعدة بدون أن تلزم الأفراد باتباعها .من هنا كانت النظرة إلى "الإلزام"

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فى قانون الأخلاق الإسلامى والعمل على تحقيق ذاتيته، لضمان السير على الطريق القويم، والصراط المستقيم، من خلال توليد الرقابة الذاتية لدى الإنسان. والتى يستشعر من خلالها ضرورة فعل الخير والتمسك بكل ما هو أخلاقى فى ظل غياب الرقباء من البشر. ولأجل ترسيخ هذه الرقابة الذاتية فى النفس الإنسانية كان حديث القانون الأخلاقى الإسلامى عن مستويات الإلزام الذاتى لدى الإنسان من خلال:

(١)استشعار الرقابة الإلهية:

وذلك من خلال أن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه،فإن لم تكن تراه فهو يراك، والرقابة الإلهية بهذه الصورة ميزة لقانون الأخلاق الإسلامى لا وجود لها فى أى تشريع بشرى ، فهذه المراقبة هى القائد والموجه لحركة المؤمن ،وهى التى تزكى الإخلاص الداخلى للفرد وتجعل الإنسان ملتزماً بالتوجيهات الأخلاقية الاجتماعية، حتى وإن انفرد بذاته وخلا بنفسه .وذلك أن هذه التوجيهات فى بدئها ونهايتها إنما هى هدى من الله الذى إن لم تكن تراه فإنه يراك .وهذه المراقبة عادة ما تجد طريقها لدى النفوس السوية معبداو ممهداً، لأنها تنطق بصوت الله وتشريعاته التى لاتصادم فطرة ولا تعمل على قهر غريزة، وإنما تعمل على تنظيم الغرائز وتهذيبها بشكل يحفظ التوازن النفسى ويحقق الاستقرار الاجتماعى على أحسن ما يكون . ومما يجب أن ينتبه المؤمن إليه بل أن يعتقده وهو مذعن أن أى جريمة قد يأتيها خفية دون أن يراه أحد من الناس، وإن لم تأخذ وصف الجريمة فى الدنيا فإنها جريمة كاملة الأركان أمام الله سبحانه وتعالى . لأنه هو المطلع على خفايا الأمور ومكنونات الصدور والضمائر،ولا يحتاج سبحانه فى حسابه الأخروى إلى إكمال أركان الجريمة كما تعارف الناس فى الدنيا عيها من خلال شهود وغيرهم. وحتى هذه فهى غير عسيرة عليه سبحانه، لأن الشهود يومئذ من داخل الإنسان نفسه بل هى الأعضاء والجوارح التى تسطنق فتنطق بما وقع منها من أفعال . يقول الله عز وجل"يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "النور .(٢٤) ويقول سبحانه "وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " فصلت .(٢١) ومن ثم ورد عن العلماء ما يعرف بالحكم ديانة والحكم قضاء، إذ قد ينفصلان فيكون الإنسان بريئاً قضاء لعدم توفر أدلة الإدانة ضده ،بيد أنه مؤاخذ ديانة طالما هو الفاعل الحقيقى والعكس كذلك صحيح ،ومن ثم يوضح النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله " إنما أنا بشر مثلكم تختصمون إلىَ ولعل أحدكم يكون ألحق بحجته فأقضى له، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما هى قطعة من جهنم فليأخذها [٤٦]" ومما

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لاشك فيه أن مراعاة مقتضى هذه المراقبة ذات أثر اجتماعى خطير فى حياة الناس . إذ تغلق فراغاً كبيرا تعجز التشريعات البشرية التى لا نصيب لها من التوجيه إلا حسب ما تقتضيه الظواهر. من هذا المنطلق كان للمراقبة دورها الكبير فى حماية المجتمع وتقوية أركان الفضيلة فى مجال المهنة وغيرها ، يقول المولى عز وجل "مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "المجادلة (٧) ويقول تعالى " وهو معكم أينما كنتم " ويقول سبحانه "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ " ق. (١٦) ويقول الأستاذ/محمد قطب " إذا فرضنا أن الدولة من عندها تعاقب على الجرائم الخلقية حين تضبطها ،فهى لن تستطيع أن ترى كل جريمة ولا أن تتعقب كل مجرم وسيفلت منها كثير من الجرائم بلا إثبات ولا عقاب ..... وإنما يحتاج الامتناع عن الجريمة الخلقية إلى الارتباط بالله. [٤٧]"

(٢)العقل المدرك:

وهو مستوى اعتبره قانون الأخلاق الإسلامى بجانب الإلزام الذاتى . واعتماد قانون الأخلاق له ضمن مستويات الإلزام يأتى فى ضوء وجود مرشد معصوم يهديه إذا ضل ويرده إلىحياض الحق عند الانحراف .ولهذا لابد من ربط العقل بسلطة عليا ينحسم معها الخلاف وينقاد الجميع لها .وهذه السلطةليست إلا خالق الإنسان العليم بأمره وبما يصلحه ويفسده وهو الله سبحانه وتعالى " أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" الملك(١٤) . وعلى هذا فإن اعتبار العقل كركن من أركان الإلزام يقوم على أساس أن العقل موجه بالشرع ،فالشرع هو السلطة العليا التى تحجب عن العقل هواه وترشده حينما يتردد ويحتار،وإذا كان العقل عرضة للخطأ والقصور ،فإن هذا يحول بينه وبين إدراك ما هو واجب. في حين نرى الوحى المعصوم مبرأ من ذلك كله لأنه تنزيل العليم الخبير . وذلك الوحى يتمثل فى"القرآن الكريم والسنة الصحيحة وما يتفرع عنهما من أصول تشريعية أخرى كإجماع المسلمين واستنباطات أئمتهم فى الفقه والفروع [٤٨]" ولا يعنى هذا وجود ازدواجية تناقضية فى مصدر الإلزام الخلقى بين الوحى الإلهى والعقل المدرك ،فالوحى هو المصدر وهو الحاكم أولاً وقبل كل شىء ولاتكون أوامر الوحى وأحكامه ملزمة بل وتدرك معانيها الخلقية إلا من خلال العقل المفطور على معرفة الله تعالى وعلى الإيمان به.

(٣)الضمير:

وقد اعتبره قانون الأخلاق الإسلامى أحد مستويات الإلزام فيه،ويقصد به هنا الضمير الموجه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والمستنير بفضل تعاليم الكتاب والسنة الذى حددت له الواجبات ووضحت له المحرمات بصورة تدفعه لفعل الواجب واجتناب المحرم، ووضعت له مقاييس ثابتة وأحكام محددة في قضايا الأخلاق وصنوف المعاملات.والإسلام عندما اعتبر الضمير مستوى من مستويات الإلزام في قانونه الأخلاقى لم يعتبره مستوى مناقضاً له، بل عده مع العقل المدرك مستويين لمصدر واحد. ويؤكد الإسلام على عدم التناقض بين مستويات الإلزام فيه حين يحيل المرء إلى"قلبه وضميره فيما يدع ويقرر من أفعال،إيماناً منه بأن العقل السليم والضمير الحى والقلب اليقظ لن يصدر منه إلا ما يتفق مع ما يأمر به قانون الأخلاق في الإسلام . [٤٩]"وقد أكد الإسلام ذلك من خلال:

(١)أن غريزة معرفة الخير والشر مغروسة في طوايا النفس الإنسانية منذ تكونها ،يقول تعالى "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا " الشمس(٧،٨).

(٢)البصيرة الأخلاقية ملكة أصيلة مستقرة في صميم الإنسان وفى بنائه الباطنى" بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ "القيامة (١٤،١٥).

(٣)ان الله سبحانه وتعالى هدى الإنسان إلى طريق الفضيلة ليأتيها ،وإلى طريق الرزيلة ليتقيها يقول تعالى "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) "البلد.(١٠

(٤)إن الله سبحانه وهب الإنسان قدرة على ضبط سلوكه، والتحكم في اتجاهاته الأخلاقية ،فيقاوم نوازع الشر في نفسه عن طريق دوافع الخير فيها ، يقول تعالى"وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى "النازعات. (٤٠،٤١)

وبهذا يتبين أن الله سبحانه وتعالى أمد الإنسان بعقل مدرك وسلطة خفية يعملان في ضوء التوجيه الإلهى، ليسمع من خلال هذه المنظومة السامية صوت الرقابة الإلهية التى يلزم عنها الإلزام الذاتى للإنسان ،فيقدم الفضيلة ويتجنب الرزيلة، حتى وإن غابت عنه أعين الناس .وهذا ما أشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله"إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه [٥٠]"وقوله صلى الله عليه وسلم " استفتى قلبك استفت نفسك ،البر ما اطمأنة إليه النفس واطمأن اليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن افتاك الناس وافتوك[٥١]"

B

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

[١] د محمود زقزوق مقدمه في علم الأخلاق ص٤٩ ط دار الطباعه المحمديه، وكذا ا يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ص٢٥طدار المعارف

١اد توفيق الطويل فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورهاص ٥٥ وما بعدها ط دار النهضة

[٣] تاريخ الفلسفة اليونانية ص٣٠ ، وكذا فلسفة الأخلاق ص١٠٨

[٤] فلسفة ألخلاق ١١٠

[٥] اد ابو بكر ذكرى مباحث ونظريات في علم الأخلاقص١٠٨ طدار الفكر العربى، وكذا مقدمة في علم الأخلاق ص٥٥

[٦] ا يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثه ص٣٤ ط دار المعارف

[٧] فلسفة الأخلاق ص ١٦٨

[٨] الأخلاق النظرية ص٢٤٧

[٩] يراجع تاريخ الفلسفة الحديثة ص٢٠٠ وكذا فلسفة الأخلاق ص٢٩٩

[١٠] فلسفة الأخلاق ص٣٠٩

[١١] المرجع السابق ص٣٤٠

[١٢] الأخلاق النظرية ص٢٦٦

[١٣] يراجع الأخلاق النظرية ص٢٨٢ ، وكذافلسفة الأخلاق ٣٥٣ ، وكذاد السيد بدوى الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ص٢٢١طدار المعارف

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

[١٤] الأخلاق النظرية ٢٨٢

[١٥] المرجع السابق ١١٣

[١٦] دابراهيم بيومى مدكور دروس في تاريخ الفلسفة ص١٢٢ ط دار المعارف

[١٧] فلسفة الأخلاق ص١٣٥

[١٨] د محمد يوسف موسى فلسفة الأخلاق في الإسلام ص١٥٥ ط الخانجى

[١٩] المرجع السابق ص ١٦٥ ، وكذا فلسفة الأخلاق ص٢٢٥

[٢٠] تاريخ الأخلاق ص ١٦٢

[٢١] مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٣٥.

[٢٢] أخلاقنا ص١٤.

[٢٣] إحياء علوم الدين ج١ ٨٥ ط الدار البيضاء

[٢٤] ابن مسكويه تهذيب الأخلاق ص٣٠ ط صبيح

[٢٥] فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص٢٠.

[٢٦] يراجع فى الأخلاق الإنسانية ص١٨ بتصرف.

[٢٧] مبادىء الأخلاقيات المهنية ص٩٥.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

[٢٨] د/زكريا ابراهيم المشكلة الخلقية ص١٥ —ط- مكتبة مصر ١٩٦٩ م.

.

[٣٠]٣أخلاقنا ص١٥.

[٣١] الأخلاق النظرية ص٢٦٣.

[٣٢] مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٥٢.

[٣٣] الإمام الغزالى الرسالة اللدنية من مجموعة القصور العوالى .ص١١٠ ط تج الشيخ محمد مصطفى أبو العلا —م- الجندى بتصرف ويراجع أخلاق العلماء ص٢٢.

[٣٤] يراجع الإسلام تعقل واستنباط ص٤٨ بتصرف وكذا د/ أحمد حسن فرحات وآخرون الفكر الإسلامى ص٢٥ —ط- جامعة الإمارات

[٣٥]-أثر الإسلام فى بناء المجتمع الفاضل ص٢٨ ، وكذا فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص٧٦.

[٣٦]-مباحث فى فلسفة الأخلاق ص١٦٣ بتصرف، وكذا مقدمة فى علم الأخلاق ص٦٦، ويراجع أخلاق العلماء ص٢٥.

[٣٧] فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص٧٢.

[٣٨] المرجع السابق ص٧٧ بتصرف.

[٣٩] رواه الطبرانى،النسائى،الإمام أحمد ،يراجع كنز العمال رقم ٦٩٩،٧٠٠.

[٤٠] د/محمد عبد الله دراز دراسات إسلامية ص١١٢ ،١١٣ نقلاً عن مقدمة فى علم الأخلاق

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

ص٧٤ ويراجع فى الأخلاق الإسلامية والإنسانية ص٧٩ .

[٤١] عن أم سلمة يراجع كنز العمال رقم ٣٠٧٦٢.

[٤٢] رواه الإمام أحمد المسند ج٤ ص١١٤ ،١١٥ ويراجع كنز العمال رقم ٧٣١٢.

[٤٣] إحياء علوم الدين .ج١ ص١٣٥..

[٤٤] المرجع السابق ج١ ص١٣٥

[٤٥] الأخلاق فى ضوء الفكر الإسلامى ص٣١ ويراجع الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ص٦٧.

[٤٦] رواه البخارى كتاب الشهادة ٢٤٨٣ ،والإمام مسلم ٣٢٣١.

[٤٧] محمد قطب فى النفس والمجتمع ص٧٥،ط الشروق. ويراجع تفصيل ذلك فى ، أثر الإسلام فى بناء المجتمع الفاضل ص٣٤، ٣٥ وكذا المختصر فى العقيدة والأخلاق ص٣٨.

[٤٨] الفكر الإسلامى ص١٦٢ ويراجع الأخلاق فى ضوء الفكر الإسلامى ص٣٣ .

[٤٩] مقدمة فى علم الأخلاق ص٧٢.

[٥٠] السيوطى الجامع الصغير ج١ ص١٧.

[٥١] رواه البخارى فى كتاب التاريخ.

This file was downloaded from QuranicThought.com